

التحرير والتنوير

واستثناء (إلا في قرى) على الوجه الأول في (جميعا) استثناء حقيقي من عموم الأحوال أي لا يقاتلونكم كلهم في حال من الأحوال إلا في حال الكون في قرى محصنة الخ . وهو على الوجه الثاني في (جميعا) استثناء منقطع لأن القتال في القرى ووراء الجدر ليس من أحوال قتال الجيوش المتساندين .

وعلى كلا الاحتمالين فالكرم يفيد أنهم لا يقاتلون إلا متفرقين كل فريق في قرىهم وإلا خائفين مترسين .

والمعنى : لا يهاجمونكم وإن هاجمتموهم لا يبرزون إليكم ولكنهم يدافعونكم في قرى محصنة أو يقاتلونكم من وراء جدر أي في الحصون والمعازل ومن وراء الأسوار وهذا كناية عن مصيرهم إلى الهزيمة إذ ما حارب قوم في عقر دارهم إلا ذلوا كما قال علي B : وهذا إطلاع لهم على تطمين للرسول A والمؤمنين ودخائل الأعداء .

و (الجدر) بضمين في قراءة الجمهور جمع جدار . وقرأه ابن كثير وأبو عمرو (جدار) على الأفراد والمراد الجنس تساوي الجمع .

و (محصنة) ممنوعة ممن يريد أخذها بأسوار أو خنادق .

وقرى بالقصر جمع قرية ووزنه وقصره على غير قياس لأن ما كان على زنة فعلة معتل اللام مثل قرية يجمع على فعال بكسر الفاء ممدودا مثل : رطوبة وركاء وشكوة وشكاء . ولم يسمع القصر إلا في كوة بفتح الكاف لغة وكوى وقرية وقرى ولذلك قال الفراء : قرى شاذ يريد خارج عن القياس .

(بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون [14])

استئناف بياني لأن الإخبار عن أهل الكتاب وأنصارهم بأنهم لا يقاتلون المسلمين إلا في قرى محصنة المفيد أنهم لا يتفوقون على جيش واحد متساندين فيه مما يثير في نفس السامع أن يسأل عن موجب ذلك مع أنهم متفوقون على عداوة المسلمين . فيجاب بأن بينهم بأسا شديدا وتدابرا فهم لا يتفوقون .

وافتححت الجملة ب (بأسهم) للاهتمام بالأخبار عنه بأنه بينهم أي متسلط من بعضهم على بعض وليس بأسهم على المسلمين وفي تهكم .

ومعنى بينهم : أن مجال البأس في محيطهم فما في بأسهم من إضرار فهو منعكس إليهم وهذا التركيب نظير قوله تعالى (رحماء بينهم) .

وجملة (تحسبهم جميعا) إلى آخرها استئناف عن جملة (بأسهم بينهم شديد) . لأنه قد

يسأل السائل : كيف ذلك ونحن نراهم متفقيين ؟ فأجيب بأن ظاهر حالهم حال اجتماع واتحاد وهم في بواطنهم مختلفون فأراؤهم غير متفقة لا إلفة بينهم لأن بينهم إحنًا وعداوات فلا يتعاقدون .

والخطاب لغير معين لأن النبي A لا يحسب ذلك . وهذا تشجيع للمسلمين على قتالهم والاستخفاف بجماعتهم . وفي الآية تربية للمسلمين ليحذروا من التخالف والتدابير ويعلموا أن الأمة لا تكون ذات بأس على أعدائها إلا إذا كانت متفقة الضمائر يرون رأيا متماثلا في أصول مصالحهما المشتركة وإن اختلفت في خصوصياتها التي لا تنقض أصول مصالحها ولا تفرق جامعتهما وأنه لا يكفي في الاتحاد توافق الأقوال ولا التوافق على الأغراض إلا أن تكون الضمائر خالصة من الإحن والعداوات .

والقلوب : العقول والأفكار وإطلاق القلب على العقل كثير في اللغة .

وشتى : جمع شتيت بمعنى مفارق بوزن فعلى مثل قتيل وقتلى شبهت العقول المختلفة مقاصدها بالجماعات المتفرقين في جهات في أنها لا تتلاقى في مكان واحد والمعنى : أنهم لا يتفقون على حرب المسلمين .

مسبب ذلك أي قلوبهم تشتت ومن بينهم بأسهم أن من ذكر ما إلى إشارة (ذلك) وقوله A E على عدم عقلهم إذ انساقوا إلى إرضاء خواطر الأحقاد والتشفي بين أفرادهم وأهملوا النظر في عواقب الأمور واتباع المصالح فأضاعوا مصالح قومهم .

ولذلك أقحم لفظ القوم في قوله بأنهم قوم لا يعقلون إيماء إلى أن ذلك من آثار ضعف عقولهم حتى صارت عقولهم كالمعدومة فالمراد : أنهم لا يعقلون المعقل الصحيح .
وأوثر هنا (لا يعقلون) . وفي الآية التي قبلها (لا يفقهون) لأن معرفة مآل التشتت في الرأي وصرف البأس إلى المشارك في المصلحة من الوهن والفت في ساعد الأمة معرفة (مشهورة) بين العقلاء قال أحد بني نبهان يخاطب قومه إذ أزمعوا على حرب بعضهم : .
وأن الحزامة أن تصرفوا ... لحي سوانا صدور الأسل